

باختصار، يمكن القول إن الحضارة الغربية تدور في إطار نموذجين: واحد آلي والآخر عضوي، يحوي كل واحد منهما صورة مجازية مختلفة: العالم كآلة، أو العالم ككائن حي. وقد بينا أن الصورتين، رغم تعارضهما الظاهري، متقاربتان تماماً داخل إطار المرجعية المادية الكامنة. فهما يحلان مشكلة النسق ووحدته، ومصدر تماسكه، ومصدر حركته واتجاهه، ولكن كلاهما يؤدي إلى الانغلاق والواحدية. والإنسان داخل النسقين إنسان طبيعي/ مادي، جزء من كل طبيعي/ مادي، وهو كلٌ يدور بشكل آلي في المنظومات المادية، وينمو بشكل عضوي في المنظومات العضوية، ولكن الإنسان في كلتا الحالتين كائن طبيعي لا حول له ولا قوة. وما بعد الحداثة هي آخر محاولة للانفلات من الرؤية العضوية/ الآلية المنغلقة، ولذا فهي تعلن سقوط المركز واختفاء الذات والموضوع والاتجاه والمرجعية. ولكن ما نجم عن هذا ليس انفتاحاً وتحرراً للإنسان، وإنما تفتت في الكون، وغياب لأية مرجعية وضمن ذلك المرجعية الإنسانية. أي أنها خروج من الثنائية الصلبة، وسقوط في السيولة الشاملة!

والصور المجازية الأساسية في الحضارة الحديثة خليط من العضوية والآلية (أو تأرجح بينهما)، يعبر عن إنكار للتجاوز وتأكيد للكون والمرجعية الكامنة. ولنأخذ، على سبيل المثال، أسطورة بروميثيوس، هذا العملاق الخرافي الذي سرق النار من الآلهة الغيورة ليمنحها إلى الإنسان، كي يصبح حراً يمتلك تلك المعرفة، مصدر ألوهية الآلهة، والتي يمكن أن تحول الإنسان إلى إله. يرى بعض دارسي العلمانية الشاملة أن أسطورة بروميثيوس وهذه هي الصورة المجازية العلمانية الأساسية. فهو (أي بروميثيوس) رمز الإنسان الذي يتمرد على القوى الغيبية ويرفض هيمنتها، ويطور العلم ليهزم الطبيعة، ويصبح هو ذاته إلهاً مكتفياً بذاته. وهي صورة مجازية جيدة تصلح لعصير النهضة وعصر الاستنارة.

ولكن كان هناك دائماً، منذ بداية المشروع التحديثي، ما سماه أحد مؤرخي الفلسفة «الاستنارة المظلمة» التي أدركها من البداية ماكيافلي وهوبز. وجوهر